الباب الخامس

العناصر العقلية فى المدنيه

الفصل الأول

الآداب

اللغة — بطانتها الحيوانية — أصولها البشرية — تطورها — نتائجها — التربية — التقليد — الكتابة — الشعر

كانت الكلمةُ بدايةَ الإنسان لأنه بالكلمة أصبح الإنسان إنساناً ؛ فلولا هذه الأصوات الغريبة التى نسميها أسماء كلية لانحصر الفكر فى الأشياء الجزئية أو الخبْرات الجزئية التى يذكرها الإنسان أو يدْركها عن طريق الحواس ، وخصوصاً حاسة النظر ؛ وأغلب الظن أنه لولا هذه الأسماء الكلية لما استطاع الفكر أن يدرك الأنواع باعتبارها متميزة عن الأشياء الجزئية ، ولاأن يدرك الصفات متميزة عن أشيائها التى تتصف بها ، ولاأن يدرك الأشياء مجردة عن صفاتها ؛ إنه لولا الكلمات التى هى أسماء لأنواع لاستطاع الإنسان أن يفكر فى هذا الإنسان وهذا وذاك ، ولكنه لم يكن ليستطيع أن يفكر فى « الإنسان » بصفة عامة ، لأن العين لاترى الإنسان العام ، بل ترى أفراداً من الإنسان فحسب ؛ العين لاترى الأنواع بل ترى الأشياء الجزئية ؛ ولقد بدأت الإنسانية حين جلس مِسْخٌ نصفه حيوان ونصفه إنسان ، جلس متربعاً فى كهف أو شجرة ، يشحذ رأسه شحذاً ليخلق أول اسم من الأسماء الكلية ، أول رمز صوتى يدل على طائفة من أشياء متشابهة : كاسم منزل الذى ينطبق على المنازل كلها ، وإنسان الذى يدل على أفراد الإنسان جميعاً ، وضوء الذى معناه كل ضوء لمع على يابس أو ماء ؛ ومنذ ذلك الحين ،

انفتح أمام التطور العقلى للإنسان طريق جديد ليست له نهاية يقف عندها ؛ ذلك لأن الكلمات للفكر بمثابة الآلات للعمل ، والإنتاج يتوقف إلى حد كبير على تطور الآلات(١) .

ولما كان تصويرنا لأوائل الأشياء لا يزيد أبدا عن حَدْس وتخمين ، فَلِخيالنا أن يرسل لنفسه العنان فى تصور بداية الكلام ؛ يجوز أن تكون أول صورة بدت فيها اللغة — ويمكن تعريف اللغة بأنها اتصال عن طريق الرموز — صيحةَ حُبٍّ بين الحيوان والحيوان ؛ وإنك لترى فى صيحات النذير والفزع ، وفى مناداة الأم لصغارها ، وفى الزقزقة والنقنقة التى يعبر بها الحيوان عن فرحه بصوته أو باتصاله بعشيره من الجنس الآخر ، واجتماعه أفرادا ليتبادل الأصوات من شجرة إلى شجرة ، إنك لترى فى هذا كله الخطوات التمهيدية التى يجهد الحيوان نفسه فى اجتيازها لكى يصل الإنسان إلى الذروة العليا ، ذروة الكلام ؛ ولقد وُجِدَت فتاة حوشية تعيش مع الحيوان فى غابة بالقرب من شالون فى فرنسا ، فلم يكن لها من الكلام إلا صرخات ودمدمات كريهة الوقع على المسامع ؛ هذه الأصوات الحيَّة التى تنبعث فى الغابات قد لا تكون ذات معنى لآذاننا التى تحضَّرَتْ ، فنحن فى هذا كالكلب المتفلسف « ريكيه » Requet الذى يقول عن « السيد بِرْچريه » Bergeret « إن كل ما ينبعث به صوتى له معنى ، أما سيدى فيجرى من فمه هراء » ؛ ولاحَظَ « وِتْمَنْ » Whitman و « كريج Craig علاقة عجيبة بين أفعال الحمام وصيحاته ؛ واستطاع « ديپون » Dupont أن يميز اثنى عشر صوتا مختلفا يستعملها الدجاج والحمام ، وخمسة عشر صوتا تستعملها الكلاب ، واثنين وعشرين صوتا تستعملها الماشية ذوات القرون ؛ ووجد « جارْنَرْ » Garner أن القردة تمضى فى لغوها الذى لا ينتهى بعشرين صوتا على الأقل ، مضافا إليها عدد كبير من الإشارات ؛ ومن هذه اللغات المتواضعة نشأت ، بعد تطور قصير المراحل ، الثلاثمائة كلمة التى تكفى بعض القبائل البشرية المتواضعة(٢) .

ويظهر أن الإشارات كانت لها الأهمية الأولى ، وللكلام المنزلة الثانية فى تبادل الفكر فى العصور الأولى ؛ وإنك لتلاحظ أنه إذا ما أخفق الكلام فى الأداء ، وثَبتَتْ الإشارات من جديد إلى الطليعة ؛ ففى القبائل الهندية فى أمريكا الشمالية ، التى تستعمل من اللهجات ما لا يقع تحت الحصر ، يجىء العروسان من قبيلتين مختلفتين فيتبادلان الفكر ويتفاهمان بالإشارات أكثر من الكلام ؛ ولقد عرف « لويس مورجان » Lewis Morgan عروسين ظلا يستخدمان إشارات صامتة مدى ثلاثة أعوام ؛ وكان التفهم بالإشارات من الأهمية فى بعض اللغات الهندية بحيث تعذر على أفراد قبيلة « أراپاهو » Arapaho — كما يتعذر على بعض الشعوب الحديثة — أن يتحدثوا فى الظلام[٣] ؛ وربما كانت أول الألفاظ الإنسانية صيحات تعبر عن العواطف كما هى الحال عند الحيوان ، ثم جاءت ألفاظ الإشارة مصاحبة للإشارة بالجسم لتدل على الاتجاه ، ثم تلَتْ ذلك أصوات مُقلَّدة جاءت فى أوانها المناسب لتعبر عن الأشياء والأفعال التى يمكن محاكاة أصواتها ، ولا تزال كل لغة من لغات الأرض تحتوى على فئات من هذه الألفاظ التى تحاكى بأصواتها الأشياء والأفعال ، على الرغم من آلاف السنين التى مضت مليئة ، بالتغيرات والتطورات التى طرأت على اللغة — مثل : زئير ، همس ، تمتمة ، قهقهة ، أنين ، زقزقة الخ(*) وعند قبيلة « تكونا » Tecuna فى البرازيل القديمة لفظ يقلد صوت المسمى تقليداً تاما يدلون به على الفعل «يعطس» وهو «هايتشو»[٥] وربما كانت هذه البدايات وأمثالها أساساً للكلمات الأوّلية فى كل لغة من اللغات ؛ وحصر « رينان » Renan الألفاظ العبرية فى خمسمائة كلمة

(*) مثل هذه المحاكاة اللفظية لا تزال ملجأ تلوذ به اللغات ما واجهها معنى جديد طارئ ، فالإنجليزى الذى أكل أول وجبة له فى الصين وأراد أن يستفسر عن نوع اللحم الذى كان يأكله سأل فى وقار وتحفظ تعهدهما فى الانجلوساكسون : « كواك ، كوالا ؟ » فهز الصينى له رأسه مجيباً فى مرح : « بو — وو »[٧] .

أصلية ، وحصر « سكيت » Skeat كل الألفاظ الأوربية تقريباً فى نحو أربعمائة كلمة أصلية(*)

ولا تحسبنّ لغات الشعوب الفطرية بدائية بالضرورة ، إذا أردنا بكلمة « بدائية » فى هذا السياق أى معنى من معانى البساطة فى التركيب ، نعم إن كثيراً منها بسيط فى ألفاظه وبنائه ، لكن بعضها معقد البناء كثير الكلمات مثل لغاتنا ، بل هو أرقى فى التكوين من اللغة الصينية(٧) ومع ذلك فتكاد اللغات البدائية كلها أن تحصر نفسها فى حدود الحسّىّ والجزئىّ ؛ وهى بصفة عامة فقيرة فى الأسماء الكلية والمجردة ؛ فسكان استراليا الأصليون يطلقون اسماً على ذيل الكلب واسماً آخر على ذيل البقرة ، ولكن ليس فى لغتهم كلمة تدل على « ذيل » بصفة عامة(٨) وأهل تسمانيا يطلقون على كل نوع من الشجر اسماً ، لكن ليس لديهم كلمة واحدة تدل على « الشجرة » بصفة عامة ؛ وكذلك هنود « تُشكتُو » Choctaw يطلقون اسماً على السنديانة السوداء ، وآخر على السنديانة البيضاء ، وثالثاً على السنديانة الحمراء : لكنهم لا يعرفون كلمة واحدة تدل على السنديانة بصفة عامة ، ثم بالطبع ليس لديهم كلمة تدل على الشجرة عامة ؛ ولا شك أن أجيالاً من الناس تعاقبت قبل أن يستطيع الإنسان أن ينتهى من اسم العَلَم إلى الاسم الكلى ؛ وفى قبائل كثيرة لا تجد ألفاظاً تدل على الألوان مجردة عن الأشياء الملوّنة ، كلا ولا تجد عندها كلمات لتدل على مجردات مثل : نغمة ، جنس ، نوع ، مكان روح ، غريزة ، عقل ، كمية ، أمل خوف ، مادة ، شعور . . . الخ(٩) ، فمثل هذه الألفاظ المجردة تتكون وتتزايد — فيما يظهر — مع تقدم الفكر ، لأن بينها وبين الفكر علاقة السبب والمسبّب ؛ وهى بعد تكوينها تصبح أدوات تعين على دقة التفكير ، ورموزاً تدل على الحضارة ؛

ولما كانت الألفاظ تعود على الناس بكل هذه المزايا ، فقد حسبوها نعمة

(*) هنا يبين المؤلف ببعض الأمثلة كيف تتحد بعض الألفاظ الأوروبية فى أصولها ؛

إلهية وشيئاً مقدساً ، بحيث أصبحت مادة تصاغ منها صيغ السحر ، وهى تزداد فى أعين الناس تقديساً كلما ازدادت فراغاً من المعنى ؛ ولا تزال فى يومنا مقدسة إذا استخدمناها فى الأسرار الخفيّة ، حين تتحول « الكلمة » إلى « لحم » — مثلا إن الألفاظ لم تكن وسيلة التفكير الواضح فحسب ، بل كانت سبيلا لإصلاح التنظيم الاجتماعى كذلك ، لأنها ربطت بين الأجيال المتعاقبة ربطاً عقلياً وثيق العرى ، بأن هيأت لهم وسيلة أصلح للتربية من جهة ، ولنقل المعارف والفنون من جهة أخرى ؛ فبظهور ألفاظ اللغة ظهرت أداة جديدة تصل الأفراد بعضهم ببعض بحيث يمكن للمذهب الواحد أو العقيدة الواحدة أن تصُبَّ أفراد الشعب فى قالب واحد متجانس ؛ وفتحت طرقاً جديدة لنقل الآراء وتبادلها ، وزادت عمق الحياة زيادة عظيمة ، كما وسَّعَتْ نطاقها ومضمونها ، فهل تعرف اختراعاً آخر يساوى فى قوته ومجده هذا الاختراع ، اختراع الاسم الكلى ؟

وأعظم هذه المزايا التى لألفاظ اللغة — بعد توسيعها للفكر — هى التربية ؛ فالمدنيّة ثروة زاخرة تجمعت على الأيام من الفنون والحكمة وألوان السلوك والأخلاق ، ومن هذه الثروة الزاخرة يستمد الفرد فى تطوره غذاء لحياته العقلية ، ولولا أن هذا التراث البشرى يهبط إلى الأجيال جيلا بعد جيل ، لماتت المدنية موتاً مفاجئاً ، فهى مَدِينةٌ بحياتها إلى التربية .

التربية بدايات ضئيلة من الشعوب البدائية ، إذ التربية عندهم — كما هى عند الحيوان — هى قبل كل شىء نَقْلٌ لضروب المهارة وتدريب الناشئ تدريباً يصوغ له شخصيته ، فهى علاقة مفيدة سليمة بين العلم والتعلم فى تلقين طرائق العيش ؛ وهذا التعليم العملى المباشر شجع عند الطفل البدائى نمواً سريعاً ؛ ففى قبائل « أوماها » يكون الولد وهو فى سن العاشرة تقريباً قد تعلم معظم فنون أبيه ، مستعداً للحياة ؛ وفى قبائل «الألوت» Aleuts غالباً مايؤسس الولد داراً لنفسه وهو فى العاشرة ، وأحياناً يختار زوجة وهو فى هذه السن ؛ وفى نيجريا يترك الأطفال وهم فى السادسة

أو الثامنة دُور آبائهم ليبنوا لأنفسهم أكواخاً ويزوّدوا أنفسهم بالقوت من الصيد والسَّماكة (١٠) ، والعادة أن ينتهى شوط التربية حين تبتدئ الحياة الجنسية ، ولما كان نضجهم يأتى مبكّراً فإن خمودهم يأتى كذلك مبكّراً ، فى ظروف الحياة عندهم ينضج الصبى فى الثانية عشرة من عمره ويشيخ فى الخامسة والعشرين(١١) ، وليس معنى ذلك أن « الهمجى » له عقلية الطفل ، بل معناه أنه لم يكن له حاجات الطفل الحديث ولا فُرَصُه ؛ وهو لم يتمتع بمثل ما يتمتع به الناشئ الحديث من مراهقة طويلة آمنة ، تسمح بنقل التراث الثقافى نقلا يكاد يكون كاملا ، وتضمن تدريبه على ضروب أكثر ومرونة أكبر فى الاستجابة للبيئة التى بعدت من الصورة الفطرية والتى زادت فيها عوامل التغير .

كانت بيئة الإنسان الفطرى ثابتة نسبياً ، ولم تكن تتطلب القدرة العقلية ، بل تطلبت الشجاعة وتكامل الشخصية ؛ فكان الوالد البدائى يركّز اهتمامه فى بناء شخصية ولده كما تركّز التربية الحديثة اهتمامها فى تدريب القوة العقلية ؛ فقد كان يعنيه أن يبنى رجالا ، لا أن يكوّن العلماء ؛ ومن هنا كانت طقوس إدماج الناشئ فى القبيلة ، تلك الطقوس التى كانت فى الشعوب الفطرية تعلن بلوغ الناشئ سن النضج وتعترف له بعضوية الجماعة ؛ ترمى إلى اختبار شجاعته أكثر مما تقصد إلى قياس معرفته ؛ وكانت مهمتها أن تُعِدّ الشباب لمشاق الحرب وتبعات الزواج ؛ وهى فى الوقت نفسه فرصة تتاح للكبار أن يمرحوا ويفرحوا بإيقاع الأذى على الآخرين ؛ وبعض هذه الطقوس « يبلغ من البشاعة ومن إثارة النفس حدا تتعذر معه الرؤية وتصعب الرواية »(١٢) ؛ فى قبيلة « الكفير » — وهذا مثل معتدل — كان الصبيان الذين يطلبون عضوية القبيلة يُمْتحنون بعمل شاق فى النهار وحرمان من النوم فى الليل ، حتى يسقطوا من الإعياء ؛ لكى يزداد القائمون بامتحانهم يقينا بصلابة هؤلاء الصبيان ، كانوا يضربونهم بالسّياط « على فترات قصيرة وبغير رحمة حتى يَنِزّ الدم من أجسادهم » وكان ذلك

يؤدي إلى قتل نسبة كبيرة من الغلمان ؛ لكن الكبار — فيما نظن — كانوا ينظرون إلى الأم نظرة الفيلسوف ؛ وربما كانوا بفعلهم هذا يسبقون الانتخاب الطبيعى ويضيفون إلى عوامله عاملا جديدا(١٣) ؛ وكانت هذه الطقوس الممتحنة عادة علامة انتهاء المراهقة والاستعداد للزواج ؛ وكانت العروس تلح فى أن يثبت عريسها قدرته على تحمل الألم ؛ وكانت هذه الطقوس عند كثير من القبائل تدور حول عملية الختان ، فإذا تحرك الشباب أثناء إجرائها أو صرخ ، ضُرِبَ أهله ضربا ، ورفضته عروسه المنتظرة — التى وقفَتْ لتشهد العملية فى عناية وانتباه — على أساس أنها لا تريد أن تتزوج من فتاة(١٤) .

لم تكن التربية البدائية تنتفع بالكتابة إلا قليلا ، أو لم تكن تنتفع بها إطلاقا ، فليس يَدْهَشُ الإنسانُ الفطرى لشىء دهشته لاستطاعة الأوربيين أن يتصل أحدهم بالآخر — وبينهما مسافة بعيدة — بوساطة خطوط سوداء تُخَطُّ على قطعة من الورق(١٥) ؛ وقد تعلمت قبائل كثيرة الكتابة محاكاتها لمن جاءوا لاستغلالها من المتحضّرين ، لكن بعض القبائل — كما هى الحال فى شمالى أفريقيا — لبث أميا على الرغم من خمسة آلاف عام أخذت هذه القبائل تتصل خلالها بالأمم الكاتبة اتصالا متقطعاً ؛ أما القبائل الساذجة التى تعيش معظم حياتها عيشا معتزلا بالنسبة إلى سواها ، وتنعم بالسعادة التى تنجم عن جهل الإنسان بتاريخه الماضى ، فلا تحسّ بالحاجة إلى الكتابة إلا قليلا ، ولقد قويت ذاكراتهم بسبب انعدام المخطوطات التى تساعدهم على حفظ ما يريدون الاحتفاظ به ، فتراهم يحتفظون . ويَعُون ، ثم ينقلون ماحفظوه وما وَعَوْه إلى أبنائهم بتسميعهم إياه ؛ وإنما هم يحفظون ويعون ويُستَمَّعون كل ما يروته هاما فى الاحتفاظ بحوادث تاريخهم وفى نقل تراثهم الثقافى ؛ ويجوز أن يكون الأدب قد بدأ حين بدأ تدوين هذا المحفوظ وتدوين الأغانى الشعبية ؛ ولاشك أن اختراع الكتابه قد صادف معارضة طويلة من قِبَل رجال الدين ، على اعتبار أنها فى الأرجح ستودى إلى هدم الأخلاق

وتدهور الإنسان ، فتروى أسطورة مصرية أنه لما كشف الإله تحوت للملك تحاموس عن فن الكتابة ، أبى الملك الطيب أن يتلقى هذا الفن لأنه يهدم المدنيَّة هدما ؛ وقال فى ذلك : « إن الأطفال والشبان الذين كانوا حتى الآن يُرْغَمون على بذل جهدهم كله فى حفظ ما يتعلمونه ووعيه ، لن يبذلوا مثل هذا الجهد (إذا ما دخلت الكتابة) ولن يروا أنفسهم فى حاجة إلى تدريب ذاكراتهم »(١٦) .

وبطبيعة الحال ليس فى وسعنا أكثر من التخمين إذا أردنا أن نقول شيئاً عن أصل هذه اللعبة العجيبة ؛ فيجوز أنها كانت نتيجة تفرعت عَرَضاً عن صناعة الخزف كما سنرى فيما بعد ، وذلك بأن نشأت عن رغبة الناس فى إثبات « العلامات التجارية » على ما يصنعونه من آنية خزفية ؛ ويجوز أن تكون زيادة التجارة بين القبائل قد اقتضت اصطناع مجموعة من العلامات المكتوبة ، وأن تكون أولى صورها تصاوير غليظة اتفق عليها الناس لتدل على السلع التى يتبادلونها فى تجارتهم وعلى ما يقوم بينهم من حساب ؛ لأنه ما دامت التجارة قد وصلت قبائل يتكلمون لغات مختلفة ، بعضها ببعض ، فلابد من اتخاذ وسيلة للتدوين وللتفاهم يفهمها الطرفان المتعاملان معاً ؛ وفى وسعنا أن نفترض أن قد كانت الأرقام بين أول طائفة من الرموز المكتوبة ، وأنها فى معظم الحالات كانت تتخذ صورة خطوط متوازنة تمثل الأصابع ؛ولانزال نستعمل كلمة « أرقام » (فى اللغة الإنجليزية) التى تدل على ذلك الأصل المخطوط ، حين نريد أن نقول « أعداد »(*) ؛ ثم لا تزال كلمات مثل كلمة « خمسة » فى اللغات الإنجليزية والألمانية واليونانية ، ترتدُّ إلى أصل لغوى معناه « يد »(١٧) ؛ وكذلك الأرقام الرومانية تشير بصورتها إلى أصابع اليد ، فالعلامة التى معناها خمسة « V » تصور يدا مفتوحة ، والعلامة التى معناها عشرة « X » تتركب من علامتين من علامات الخمسة تقابلتا عند زاويتيهما ؛

---

(١) كلمة figure فى الإنجليزية معناها « شكل مخطوط » أو « رقم » . (المعرب)

حروف الهجاء الإنجليزية ومقابلاتها فى أنواع الكتابة القديمة

obeikandl.com

وكانت الكتابة فى بدايتها — كما لا تزال عند أهل الصين واليابان — ضرباً من الرَّسْم أى كانت ضرباً من الفن ؛ فكما أن الإنسان كان يستخدم الإشارات حين كانت تتعذر عليه الكلمات ، فكذلك استخدم الصور لينقل أفكاره عَبْر المكان وخلال الزمان ؛ فكل كلمة وكل حرف مما نستعمله اليوم كان فيما سبق صورة ، كما هى الحال الآن فى العلامات التجارية وفى التعبير عن أبراج السماء ؛ والصور الصينية البدائية التى سبقت الكتابة كانت تسمى « كوروان » ومعناها الحرفىّ « صور للإشارات » ؛ وكانت القوائم الطوطمية كتابة تصويرية ، أو كانت — كما يقترح « ماسون » Mason رسماً تدونه القبائل لتعبر به عن نفسها ؛ فبعض القبائل كان يستعمل عصيًّا محزوزة لتذكّرهم بشىء أو ليبعثوا بها رسالة ؛ وبعضها الآخر — مثل « هنود ألجُونْكِوِنْ » Algouquin لم يكتف بحزّ العصىّ ، بل رسم عليها أشكالا تجعلها صوراً مصغرة للقوائم الطوطمية ؛ أو ربما العكس هو الصحيح ، أى أن هذه القوائم الطبيعية كانت صورة مكبرة للعصىّ المحزوزة ، وكان هنود پيرو يحتفظون بمدوّنات طويلة من الأعداد ومن الأفكار ، بأن يعقدوا حبالا مختلفة الألوان بالعُقَد والعُرَى ؛ وربما أُلقى شىء من الضوء على أصل هنود أمريكا الجنوبية إذا عرفنا أن هذه العادة نفسها سادت بين سكان الأرخبيل الشرقى وأهل پولنيزيا .

ولما أهاب « لاَوْتسى » Lao-Tse بقومه الصينيين أن يعودوا إلى الحياة الساذجة ، اقترح عليهم أن يرتدُّوا إلى ما كانوا يصنعونه فى عصورهم البدائية من حِبال معقودة(١٨) وتظهر صور من الكتابة أرقى مما ذكرنا بين الشعوب الفطرية آنا بعد آن ، فلقد وجدنا رموزا هيلوغريفية فى جزيرة « إيستر » فى البحار الجنوبية ؛ وكشفنا الغطاء فى إحدى جزر « كارولينا » عن مخطوط يتكون من واحد وخمسين رمزاً مقطعياً تصور أعداداً وأفكارا(١٩) ، وإن الرواية لتروى كيف حاول رؤساء جزيرة إيستر وكهنتها أن يحتفظوا لأنفسهم بكل معرفة تتصل

بالكتابة ،: وكيف كان الناس يحتشدون مرة فى كل عام ليسمعوا المدوّنات وهى تُقرأ عليهم ؛ فبديهى أن الكتابة كانت فى مراحلها الأولى شيئاً غامضاً مقدساً ، ولفظة « هيروغليف » معناها نقش مقدس ، ولسنا على يقين من أن هذه المخطوطات البولينزية لم يكن مصدرها إحدى المدنيّات التاريخية ؛ لأن الكتابة — على وجه العموم — علامة تدل على الحضارة ، وهى من أوثق المميزات التى تفرق بين أهل المدنيّة وأبناء العصور البدائية .

الأدب فى أول مراحله كلمات تقال أكثر منه حروفاً تكتب (على الرغم من أن الكلمة فى الإنجليزية تنتمى فى أصلها اللغوى إلى ما يدل على الكتابة) ؛ وهو ينشأ فى ترانيم دينية وطلاسم سحرية ، يتغنى بها الكهنة عادة ، وتنتقل بالرواية من ذاكرة إلى ذاكرة ؛ والكلمة التى معناها الشعر عند الرومان ، وهى « Carmina » تدل على الشعر وعلى السحر فى آن واحد ؛ والكلمة التى معناها نشيد عند اليونان ، وهى « Ode » معناها فى الأصل طلسم سحرىّ ، وكذلك قلْ فى الكلمتين الإنجليزيتين « Tune » و « Lay » والكلمة الألمانية « Lied » وأنغام الشعر وأوزانه ، التى ربما أوْحَى بها ما فى الطبيعة وحياة الجسد من انساق ، قد تطورت تطوراً ظاهراً على أيدى السحرة الذين أرادوا أن يحتفظوا وينقلوا ثم يزيدوا من « التأثير السحرىّ لأشعارهم »[٢٠] ، ويعزو اليونان أول ما قيل من شعر فى البحر العُشارى إلى كهنة دلفى ، الذين ابتكروا هذا البحر ليستخدموه فى نظم نبوءاتهم[٢١] ، وبعدئذ أخذ الشاعر والخطيب والمؤرخ يتميز بعضهم من بعض شيئاً فشيئاً ، ويتجهون اتجاهاً دنيوياً فى فنونهم ، بعد أن اتحدوا جميعاً فى هذا الأصل الكهنوتى ، فأصبح الخطيب مُشيدا رسمياً بأعمال الملك أو مدافعاً عن الآلهة ، وبات المؤرخ مسجلا لأعمال الملك ، والشاعر مغنيّا لأناشيد كانت فى الأصل مقدسة ، ومعبراً وحافظاً لأساطير البطولة ، وموسيقيّا صاغ أقاصيصه صياغة الألحان ليعلّم بها الشعب وملوكه جميعاً ؛ وهكذا كان لأهل فيجى وتاهيتى وكالدونيا

الجديده خطباء ومؤرخون رسميون ، عليهم أن يخطبوا الناس فى المحافل العامة ، وأن يثيروا حماسة المقاتلين فى القبيلة بذكر أعمال أجدادهم والإشادة بمجد أمتهم التليد الذى لاتضارعها فيه أمة أخرى ؛ وكان للصومال شعراء محترفون يطوفون من قرية إلى قرية ينشدون الأناشيد مثل الشعراء المنشدين والشعراء الطوافين الذين عرفتْهم العصور الوسطى ، ولم تكن أشعارهم التى يتغنون بها عن الحب إلا فى حالات نادرة ، وأما فى أكثر الحالات فقد كانت تقال عن البطولة البدنية أو حومة القتال أو علاقة الآباء بأبنائهم ، وهاك مثلا من الشعر مأخوذاً عن أحد الآثار القديمة فى جزيرة إيسترْ ؛ وهو رثاء والد لابنته أبعدتها تصاريف الحروب عنه :

إن ركوب ابنتى لمتون البحار .
لم تُفسْده عليها قط قبائل الأعداء
إن ركوب ابنتى لمتون البحار
لم يُفسْده عليها التآمر من أهل هونيتى
فما فتئت ظافرة فى كل حروبها
هل اغرّوْها بشرب الماء المسموم
من الزجاجة الحجرية السوداء ؟ هذا مستحيل .
هل يمكن لأحزانى أن يقلّ سعيرها
بينما يفصلنى عن ابنتى خضمُّ البحار ؟
أواه يا ابنتى ، أواه يا ابنتى !
إنه لطريق مائى فسيح
ذلك الذى أمدّ بصرى خلاله تجاه الأفق
يا ابنتى ، أواه يا ابنتى !(٢٢)

الفصل الثانى

العلم

البدايات — الرياضة — الفلك — الطب — الجراحة

يرى هربرت سبنسر ذلك الإخصائى العظيم فى جمع الشواهد للوصول إلى النتائج ، أن العلم — كالأدب — بدأ بالكهنة ، واستمد أصوله من المشاهدات الفلكية التى كانت تحدد مواقيت المحافل الدينية ، ثم صِينَ فى كنف المعابد ونُقِلَ عَبْرَ الأجيال باعتباره جزءاً من التراث الدينى[٢٣] ؛ ولسنا نستطيع الجزم برأى فى هـذا ، لأن البدايات لا تمكّننا من معرفتها ، سواء فى العلم أوفى غيره ؛ وكل ما نستطيعه هو التخمين والظن ؛ فيجوز أن يكون العلم — شأنه فى ذلك شأن المدنيّة بصفة عامة — قد بدأ مع الزراعة ؛ فالهندسة فى أولها كانت عبارة عن قياس الأرض المزروعة ؛ وربما أنشأ علمَ الفلك حسابُ المحصول والفصول الذى يستدعى مشاهدة النجوم وإنشاء التقويم ؛ ثم تقدم الفلك بالملاحة ، وطَوَّرَتْ التجارة علم الرياضة ، كما وضعت فنونُ الصناعة أُسس الطبيعة والكيمياء .

وربما كان العدُّ من أول ما شهد الإنسان من صور الكلام ، ولايزال العدُّ فى كثير من القبائل يتم على صورة تبعث على الابتسام ببساطتها ؛ فقد عَدَّ « التسمانيون » إلى العدد اثنين لم يجاوزوه : « پارْمَرِى ، كالاباوا ، كارْدِيا » — يعنى : « واحد ، اثنين ، كثير » ؛ ثم ذهب أهل قبيلة « جوارانى » Guaranis فى البرازيل إلى أبعد من ذلك ، فقالوا : « واحد ، اثنَين ، ثلاثة ، أربعة ، كثير » والهولنديون الجدد ليس لديهم كلمات للفظى ثلاثة أوأربعة ، بل هم يطلقون على ثلاثة كلمة « اثنين — واحد » وعلى أربعة كلمة « اثنين — اثنين » ؛ وأهل

« دامارا » لايقبلون أن يبادلوا غنمتين باربع عصىّ ، لكنهم يقبلون أن يبادلوا غنمة بعَصَوَيْن ، ثم يكررون العملية مرة أخرى ؛ ولقد كان العَدُّ وسيلته الأصابع ، ومن هنا نشأ النظام العشرى ؛ ولما أدرك الإنسان فكرة العدد اثنى عشر ، والأغلب أن يكون أدرك بعد حين من الزمن ، فرح به لأنه كان مريحاً للنفس بقبوله القسمة على خمسة من الأعداد الستة الأولى ؛ وهنا وُلد النظام الاثنا عشرى فى الحساب ، وهو نظام لا يزال قائماً ، لايريد لنفسه الزوال ، فى المقاييس الإنجليزية حتى اليوم ؛ فاثنا عشر شهراً تكوّن عاما ، واثنا عشر بنساً تكون شلناً ، و « الدستة » اثنا عشر ، و « الجروسة » اثنا عشر « دستة » والقدم اثنا عشر بوصة ؛ أما العدد ثلاث عشر ، فهو على عكس سالفه ، يأبى الانقسام ، ولذا أصبح بغيضاً عند الناس ، ومبعثاً للتشاؤم إلى الأبد ؛ ولما أضيفت أصابع القدمين إلى أصابع اليدين ، تكونت فكرة العشرين ؛ ولا يزال استعمال هذا العدد فى العدّ ظاهراً فى قول الفرنسيين « أربع عشرينات » ليدلوا على « ثمانين » ؛ وكذلك استخدمت أجزاء أخرى من البدن معايير للقياس ، فاليد كلها « للشِّبْر » والإبهام للبوصة (اللفظتان فى اللغة الفرنسية ينوب عنهما لفظة واحدة تؤدى المعنيين) والذراع حتى المرفق للذراع ؛ والذراع كلها لمقياس آخر (يسمى ذراع الهندازة) والقدم للقدم ؛ وفى عصر متقدم ، أضيفت الحصوات إلى الأصابع لتعين على عملية العدّ ؛ ولاتزال الكلمة الإنجليزية للعدّ ، (Calculate) تشير بأصلها اللغوى إلى أصلٍ معناه « حجر صغير » مما يدل على صغر المسافة التى تفصل القدماء السذّج عن المحدثين ، ولقد تمنى « ثورو » Thoreau أن يحيا هذه البدائية الساذجة ، وأجاد التعبير عن حالة كثيراً ما تعاود الإنسان فقال : « إن الرجل الأمين لا يكاد يجد الحاجة إلى عدّ يجاوز به أصابع يديه ، وقد يضيف إليها أصابع قدميه فى حالات نادرة ؛ ثم يكدس ما بقى له بعد ذلك فى كتلة واحدة ؛ فرأيى هو أن نُجرى أمورنا على نسق الاثنين او الثلاثة ، لا على نسق المائة أو الألف ، فبدل

المليون ، عُدَّ ستة فقط ، وسجل حسابك على ظفر إبهامك »[٢٠] .

وربما كانت بداية الفلك فى قياس الزمن بحركات الأجرام السماوية وكلمة « مقياس » نفسها (فى اللغة الإنجليزية measure) وكلمة شهر (month) — بل ربما كانت كلمة إنسان man أيضاً وهو الذى يقوم بالقياس — كل هذه الكلمات تَرْتَدُّ — بغير شك — إلى أصل لغوىٍّ معناه القمر (moon)[٢٦] ذلك لأن الناس قاسوا الزمن بدورات القمر قبل قياسه بالأعوام بزمن طويل ؛ فالشمس — مَثَلُها فى ذلك مَثَلُ الأب لم تستكشف إلا فى وقت متأخر نسبيا ؛ وحتى اليوم ترانا نحسب موعد عيد الربيع « Easter » بأوجه القمر ؛ وكان لأهل پولنيزيا تقويمٌ ، العامُ فيه ثلاثة عشر شهراً ينظمها القمر ؛ فلما رأوا أن سنتهم القمرية تختلف اختلافا بيِّنا عن مواكب الفصول ، أسقطوا شهراً قرياً ، وبذلك استعادوا التوازن بين سنتهم وبين الفصول[٢٧] ؛ لكن استخدام الأجرام السماوية على هذا النحو المتزن كان شذوذاً بالقياس إلى التخبط فى استخدامها للتنجيم ، فالتنجيم قد سبق علم الفلك ، وربما دام وجوده على الرغم من ظهور علم الفلك ؛ ذلك لأن النفوس الساذجة أكثر اهتماما بالكشف عما يخبئه لها الغيب منها بمعرفة الزمن ؛ فنشأت ألوف الخرافات عن تأثير النجوم فى خُلُق الإنسان ونصيبه المقدور ، ولا يزال كثير من هذه الخرافات مزدهراً فى يومنا هذا(*) وربما لم تكن هذه الخرافات خرافات بالمعنى الصحيح ، ويجوز أن تكون ضربا آخر من الخطأ فى التعليل ؛ وما العلم نفسه إلا الضرب الأول من ذلك الخطأ .

والإنسان البدائى لا يصوغ شيئاً من قوانين علم الطبيعة ، ويكتفى بممارستها من الوجهة العملية ؛ فلئن لم يكن فى مقدوره أن يقيس مسار المقذوف فى الفضاء ،

(*) فيما يلى اقتباس من إعلان أذاعته قاعة البلدية فى نيويورك عن برنامجها يوم ٥ مارس سنة ١٩٣٤ : (فلان سيكشف الطالع لمن أراد ؛ وهو المنجم لعلية القوم فى نيويورك ولأرباب المهن الممتازين ؛ والساعة تكلف عشرة ريالات) .

إلا أنه يستطيع أن يصوّب سهامه نحو الهدف فلا يخطئ ؛ ولئن لم يكن لديه موز كيماوية ، إلا أنه يستطيع أن يميز بلمحة سريعة أى النباتات سام وأيها طعام ، بل يستطيع أن يستخدم الأعشاب استخداماً دقيقاً فى شفاء أمراض البدن ؛ والأرجح أن يكون أول من امتهن حرفه الطب هن من النساء ، لا لأنهن الممرضات الطبيعيات للرجال فحسب ، ولا لأنهن جعلن من فن التوليد — أكثر مما جعلن من مهمة الارتزاق — أقدم المهن جميعاً فحسب ؛ بل لأن اتصالهن بالأرض كان أوثق من اتصال الرجال بها ، فأتاح ذلك لهن علماء أوسع بالنبات ، ومكّنهن من التقدم بفن الطب ، ومَيَّزْنَه عن التجارة بالسحر التى كان يقوم بها الكهنة ؛ فمنذ أقدم العصور حتى عصر يقع فى حدود ما تعيه ذاكرتنا ، كانت المرأة هى التى تباشر شفاء المرضى ؛ ولم يلجأ المريض عند البدائيين إلى طبيب يشفيه أو إلى ساحر إلا إذا أخفقت المرأة فى أداء هذه المهمة(٢٨) .

وإنه لما يثير الدهشة فى نفسك أن تعلم كم من الأمراض كان يشفيها هؤلاء البدائيون على الرغم من قصور علمهم بالأمراض(٢٩) ؛ فالمرض عند هؤلاء السُّذَّج — فيما بدا لهم — كان نتيجةً لحلول قوة غريبة عنه أو روح غريب فى بدنه — وهو تصور لا يختلف من حيث الجوهر عن النظرية التى تسود الطب الآن من تعليل المرض بدخول الجراثيم فى الجسم ؛ وأوسع طرق العلاج شيوعا بين البدائيين هو اصطناع رُقْيَةٍ سحرية من شأنها أن تسترضى الروح الشريرة التى حَلَّتْ فى البدن العليل ؛ لعلها تنزاح عنه ؛ وإذا أردت أن تعرف مدى رسوخ هذه الطريقة فى أفئدة الناس بحيث لاتزول عنها أبداً ، فاقرأ قصة « خنزير جادارين » Gadarene Swine(١٢٩) ، وحتى اليوم ترى الناس يعللون الصرع بحلول روح شرير فى البدن ؛ وبعض العقائد الدينية المعاصرة تنص على طرائق معينة لإخراج مثل هذا الروح الشرير من جسم العليل إذا أريد شفاؤه ؛ والكثرة الغالبة من الناس تعترف بالصلاة والدعوات على أنها تعين على الشفاء مع أقراص الدواء ؛ وربما

كان البدائيون يقيمون طريقتهم فى العلاج على نفس الأساس الذى يُقيم عليه أحدث الطب طريقته ، ألا وهو الشفاء بقوة الإيحاء ؛ غير أن أفاعيل أولئك الأطباء الأوّلين كانت أشد استلفاتاً للنظر بأساليبها المسرحية ، مما يصطنعه خلفاؤهم الذين ازدادوا عنهم حضارة ؛ فقد كانوا يحاولون طرد الروح الحالّ فى جسم المريض بتخويفه بما يلبسونه له من أقنعة مفزعة ، وما يغطون به أجسادهم من جلود الحيوان ، وبصياحهم وهذيانهم وتصفيقهم بالأيدى ، و « الشخشخة » بالصفائح وامتصاص الشيطان من الجسم المريض بوساطة أنبوبة مجوفة ؛ فكما كان يقول المثل السائر : « الطبيعة تشفى المريض ، والعلاج يسرُّ المريض » ، وأما قبائل « بورورو » Bororos البرازيلية فقد تقدمت بالعلم خطوة حين كانت تطلب إلى الوالد شرب الدواء ليشفى بذلك طفله المريض ، ولقد كان الطفل يشفى فى اطّراد كاد أن يكون شاملا كاملا(٣٠) .

وإلى جانب الأعشاب الطبيّة نجد بين الأساليب الصيدلية الكثيرة التى كان يلجأ إليها الإنسان البدائى ، صنوفاً من المخدرات المنومة التى أريد بها أن تخفف الألم وتهوّن الجراحات ؛ فسموم مثل Curare الذى كثيراً ما يضعونه على أطراف سهامهم ؛ ومخدرات مثل نبات القنّب والأفيون والكافور ، هى أقدم تاريخاً من التاريخ ؛ حتى ليرجع أحد المخدّرات الشائعة بيننا اليوم إلى استخدام سكان بيرو لنبات الكوكا لهذه الغاية ؛ ويحدثنا « كارتييه » Cartier كيف كان أهل « إراكوا » يشفون مرض الإسقربوط بلحاء أشجار التنّوب والشوكران وأوراقها(٣١) وكذلك عرف الجراحون البدائيون طائفة مختلفة من الجراحات والأدوات ، فالولادة كانت تتم على نحو مُرْضٍ ، والكسور والجروح كانت تُضَمَّدُ وتُلَفُّ بمهارة(٣٣) ؛ وبوساطة مُدًى من الحجر الزجاجى الأسود ، أو من الصوّان المرهف ، أو أسنان السمك ، كانوا يستخرجون الدم من « الخُرَّاجات » ويجففونها ، كما كانوا يشرّطون الأنسجة ؛ وقد مارس البدائيون « تَرْبَنَةَ »

الجمجمة منذ أيام هنود پيرو الأقدمين إلى أهل ملينزيا المحدثين ؛ وكان الملنيزيون ينجحون فى تسع حالات من كل عشر حالات بينما كانت الجراحة نفسها عام ١٧٨٦ تنتهى بالموت فى كل الحالات بغير استثناء فى مستشفى « أوتيل دييه » Hôtel-Dieu فى باريس(٣٣)

إننا نبتسم لجهل البدائيين ، بينما نستسلم جادّين للأساليب الطبيّة الكثيرة التكاليف فى أيامنا ؛ يقول « الدكتور أولڤر وندل هولمز » Oliver Wendell Holms بعد حياة طويلة قضاها فى شفاء المرضى :

« لن يتردد الناس فى أداء شىء ، بل ليس هناك شىء لم يؤدوه فعلاً ، فى سبيل استعادة العافية وإنقاذ الحياة ؛ فقد رضوا أن يُغْرَقوا فى المـاء نصف إغراق ، ويختنقوا بالغاز نصف اختناق ؛ ورضوا أن يدفنوا فى الأرض إلى أذقانهم ، وأن يوصموا بالحديد المُحَمّى مثل عبيد قادس ؛ ورضوا أن يُقَصَّبُوا بالمُدَى كأنهم سمك القُدّ ، وأن تثقب لحومهم بالإبَر ، وأن تُشْعَلَ المشاعل على جلودهم ، ورضوا أن يجرعوا كل صنوف المقززات ، وأن يدفعوا لذلك كله أجراً كأنما سَلْقُ الجسم وإحراقه ميزةٌ ثمينة ، وكأنمـا « الڤمافيق » نعمة ، ودُودُ العَلَق ضرب من الترف »(٣٤) .

الفصل الثالث

الفن

معنى الجمال — معنى الفن — إحساس البدائى بالجمال — صبغ الجسم — دهان الوجه للتجمل — الوشم — الوصم — الثياب — الحلى — الحزف — التصوير — النحت — فن البناء — الرقص — الموسيقى — تلخيص للخطوات البدائية التى مهدت للمدنية .

بعد أن أنفق الفن من عمره خمسين ألف سنة ، لا يزال الناس يتنازعون على تحديد مصادره من غريزة الإنسان ، ومبادئه فى عصور التاريخ ، فما الجمال ؟ — لماذا نُفتَتَنُ به ؟ لماذا نحاول آن نبدعه ؟ لما لم يكن هذا مجال المناقشة النفسية ، فسنكتفى بالردّ مختصراً وفى غير قطعٍ باليقين ، بأن الجمال هو أية صفة تجعل شيئاً أو شكلا ممتعاً لمن يشهده ؛ ولم يكن الشىء — من حيث الأصل والبداية — يمتع الناظر إليه لأنه جميل ، لكن الأقرب إلى الصواب هو أن الرائى يسمى الشىء جميلا لأنه يمتعه ؛ وكل ما من شانه أن يشبع رغبة عند الإنسان ، يبدو لعينيه جميلا ؛ وعلى ذلك فالطعام جميل لمن يتضور جوعاً ، بينما « تاييس » ليست عنده حينئذ بذات جمال ؛ وقد يكون الشىء الممتع هو المشاهِدُ نفسه ، وقد لا يكون — كلا الفرضين على درجة واحدة من قوة الاحتمال ؛ فنى أعماق قلوبنا لسنا نرى شيئاً أجمل من أشكالنا ، ويبدأ الفن من تمجيد الإنسان لجسمه الرائع ؛ أو قد يكون الشىء الممتع هو العشير من الجنس الآخر الذى يرغب فيه الرائى ، وعندئذ يصطنع إحساسُنا بالجمال شدّةً وقوةَ إبداعٍ هما شدةُ الشهوة الجنسيةوقوةُ إبداعها ؛ ثم يوسّع من هالة الجمال حتى تشمل كل شىء يمس الحبيب من بعيد أو قريب — فتشمل كل صورة جاءت شبيهة بصورتها ، وكل الألوان التى تزينها أو تسرّها أو تتحدث عنها ، وكل الحلىّ والثياب التى تلائمها ؛ وكل الأشكال

والحركات التى تذكّر بما لها من تناسق ورشاقة ؛ أو قد يكون الشكل الممتع هو صورة الذكر المطلوب ؛ ومن الجاذبية التى تجذب ضعف الإنسان نحو عبادة القوة يأتى إحساسنا بروعة الفخامة — فتطمئن نفوسنا فى حضرة القوة — وهو إحساس يخلق أرفع آيات الفن جميعاً ؛ وأخيراً قد تصبح الطبيعة نفسها — بمعونة منا — فخمة وجميلة فى آن معاً ، لالأنها تشبه وتوحى برقة المرأة كلها وقوة الرجل كلها فحسب ، بل لأننا نخلع عليها مشاعرنا وما أصبناه من حظوظ ، وحبنا لأنفسنا ولغيرنا — فنحن نستمتع فيها بمدارج صبانا ، ونستمتع فيها بالعزلة الهادئة لأنها مهرب من عاصفة الحياة ؛ ونحيا معها فى تقلّب فصولها الذى يكاد أن يكون إنسانىّ المراحل : فيفاعة نضيرة ، ونضج متّقد ، وإثمار يانع ، ثم انحلال بارد ؛ ونرى فيها على نحو غامض أمنّا وهبتنا الحياة ، وستتقبلنا عند الموت .

الفن هو إبداع الجمال ، هو التعبير عن الفكر أو الشعور فى صورة تبدو جميلة أو فخمة ، فتثير فينا هزة هى هزة الفرح الفطرىّ التى تثيرها المرأة فى الرجل ، أو الرجل فى المرأة ؛ وقد يكون الفكر إدراكا لمعنى من معانى الحياة كائناً ما كان ، وقد يكون الشعور إثارة أو استرخاء لوتر مشدود من أوتار الحياة كائناً ما كان ؛ وقد تبعث الصورة الفنية فى أنفسنا لما فيها من تناسق دَوْرِىٌّ يسرّنا لأنه يتجاوب فى طبائعنا مع نوبات الأنفاس ، ونبضات الدم ؛ وتداول الشتاء والصيف على نحو يبعث على الإجلال ، وتعاقب الجزر والمد والليل والنهار ؛ أو قد تبعث الصورة الفنية فى أنفسنا الرضى لما فيها من تماثل هو بمثابة الوزن فى الشعر قد تجمد ، يمثّل القوة أمام أبصارنا ، ويصوّر لنا التناسب المنتظم فى النبات والحيوان ، وفى النساء والرجال ؛ أو قد تحدث الصورة الفنية فى أنفسنا الرضى لألوانها التى تضىء الروح بضيائها أو تعمق بالحياة من السطح إلى الغزير ؛ وأخيراً قد تبعث الصورة الفنية فى أنفسنا الرضى لما فيها من صدق ، إذ نرى فيها محاكاة واضحة ناصعة للطبيعة أو للواقع الخارجى ، حين تلقف لمحة من جمال النبات أو الحيوان كان

قمينا أن يزول ، أو تلمح معنى عابراً لظرف قائم لكنه وشيك الزوال ، ثم تعرضه ساكناً ثابتاً أمام حسٍّ يتلكأ فى استمتاعه بما يرى ، أو أمام عقل يحبُّ أن يتأمل على مهل ؛ من هذه المصادر الكثيرة يأتى ما فى الحياة من ألوان الكماليات السامية — الغناء والرقص ، الموسيقى والمسرحية ، الخزف والتصوير ، النحت والعمارة ، الأدب والفلسفة ؛ فما الفلسفة إن لم تكن فنا ؟ ما الفلسفة إن لم تكن محاولة أخرى تضاف إلى محاولات سائر الفنون فى أن تُفيض على فوضى ما يقع لنا فى دنيا التجربة « صورة لها معنى » ؟

فإذا كان الإحساس بالجمال ضعيفاً فى الجماعة البدائية فقد يكون ذلك بسبب انعدام الفارق الزمنى بين الشعور بالشهوة الجنسية وبين تحقيقها ، لأن ذلك لا يتيح الفرصة للخيال أن يضفى على موضوع الشهوة ألواناً من عنده ، تزيد من جماله زيادة كبيرة ؛ إن الإنسان البدائى قلما يفكر فى اختيار النساء على أساس ما نسميه نحن فهن بالجمال ، بل هو أدنى إلى التفكير فيهن على أساس نفعى ، ويستحيل أن يدور فى خلده أن يرفض عروساً مفتولة العضلات بسبب قبحها ؛ فرئيس القبيلة من الهنود حين سئل أىّ زوجاته أروع جمالا ، اعتذر عن عدم الجواب لأنه لم يفكر قط فى هذا الموضوع ، وقال فى حكمة ناضجة تشبه حكمة فرانكلين : « قد تكون الوجوه أكثر جمالا أو أقل جمالا ؛ لكن النساء فى جوانبهن الأخرى لا يختلف بعض ن عن بعض فى شىء » ؛ وحتى إن كان للإنسان البدائى إحساس بالجمال ، فهو أحياناً يُفضّلت منا فلا نراه ، لشدة اختلافه عن إحساسنا نحن بالجمال ؛ يقول « رتشارد » : « كل مَن أعرف من أجناس الزنوج ، يعدُّون المرأة جميلة إذا لم تكن نحيلة عند خصرها ، وإذا ما كان جذعها من الإبطين إلى الردفين ذا عَرْض واحد — حتى يقول عنها زنجى الساحل : إنها كالسُّلّم » والآذان المطروقة كآذان الفيل ، والبطن المتثنّى هما من مفاتن المرأة عند الرجال فى إفريقيا ؛ وفى أرجاء أفريقيا كلها ، أجمل النساء هى المرأة السمينة ؛ فيقول « منجوپارك »

Mango Park عن نيجيريا : « يظهر أن لفظتى السِّمنة والجمال تكادان تكونان مترادفتين ؛ فالمرأة التى تزعم لنفسها ولو قليلا من جمال ، لابد أن تكون ممن يتعذر عليهن المشى إلا إذا سار إلى جانبيها عَبْدان ، يسير كل منهما تحت ذراع ليكون لها دعامة ؛ والجمال الكامل تبلغه المرأة إن ساوت بوزنها حِمْل الجمل » ويقول « بريفو » Briffault : « إن معظم الهمج يؤثرون ما نظنه نحن من أقبح ما تتصف به المرأة ، وأعنى به الأثداء الطويلة المتدلية »(٣٥) ؛ ويقول « دارون » : « إنه من المعلوم لنا جميعاً أن العَجز عند كثيرات من نساء الهوتنتوب يبرز بروزاً عجيباً ولا يشك « سير أندرو سمث » أبداً فى أن هذه الخصيصة للعجيبة موضع إعجاب من الرجال ، فلقد رأى ذات يوم امرأة هى عندهم من ربات الجمال ، كانت من الضخامة فى أردافها بحيث إذا ما أجلسوها على أرض منبسطة استحال عليها الوقوف إلا إذا زحفت زحفاً حتى دَنَت من سفح مائل . . . ويروى لنا « بيرتُن » Burton عن أهل الصومال أن الرجال إذا ما أرادوا اختيار الزوجات ، صفّوا النساء صفّا واختاروا من بينهن أكثرهن بروزاً فى العجز ؛ وليس أقبح فى عينى الزنجى من المرأة النحيلة »(٣٦)

لكن الرجل الطبيعى فى أرجح الظن — يقيس الجمال بمقياس نفسه هو أكثر مما يقيسه بمعيارشكل المرأة ، «فالأقربون — فى الفن — أولى بالمعروف» ؛ وقد لا يُصَدِّقُ النساء ما نزعمه لهن من أن الرجال البدائيين والمحدثين يأخذهم العُجْبُ بأنفسهم سواء بسواء ؛ فالذكر لا الأنثى فى الشعوب الساذجة — كما هى الحال فى الحيوان — هو الذى يتزيّن ويُنزل بجسده الجروح ؛ سعياً وراء الجمال ، فيقول « بُنْوِك » Bonwick : « إن التّزَيُّن فى استراليا يكاد يكون كله احتكاراً للرجل » وهكذا قُل فى مالنيزيا وغينا الجديدة وكالدونيا الجديدة وبريطانيا الجديدة ، وهانوفر الجديدة وهنود أمريكا الشمالية(٣٧) وفى بعض القبائل يستنفد تجميل الجسم وقتاً أكثر مما تستهلكه أية مهمة أخرى من

مهام النهار(٣٨) وواضح أن أول صورة للفن هى صبغ الجسم صبغة صناعية وهم يصبغون الجسم ليجذبوا النساء حيناً وليخيفوا الأعداء حيناً آخر ؛ والرجل من أهل أستراليا الوطنيين — كأحدث فاتنة من فاتنات أمريكا اليوم — كان دائماً يحمل معه مقداراً من الصبغة البيضاء والحمراء والصفراء ، ليُصلح من جماله حيناً بعد حين ، فإذا ما أوشكت أصباغه على النفاد ، قام برحلات بعيدة خطرة ليزوّد نفسه منها بمقدار جديد ، وهو يكتفى فى الأيام العادية ببقع من اللون على خديه وكتفيه وصدره ، ولكن كان فى مناسبات الأعياد ، يُحِسُّ ما يُحِسُّه العُرْيان من خجل إذا لم يصبغ جسده كله من أعلاه إلى أسفله(٣٩) .

فى بعض القبائل يحتكر الرجال لأنفسهم حق صبغ الجسم ، وفى قبائل أخرى يحرّم على النساء المتزوجات أن يصبغن أعناقهن(٤٠) ؛ لكن ما لبث النساء أن ظفرن لأنفسهن بفن التجمل بالأصباغ ، وهو أقدم الفنون جميعاً ؛ فلما وقف « كابتن كوك » Captain Cook فى زيلندة الجديدة حيناً ، لاحظ أن بحارته حين عادوا إليه من جولاتهم على الشاطئ ، كانوا حُمْرَ الأنوف أو صُفْرها بأصباغ صناعية ، ذلك لأن أنوفهم قد لصقت بها الأصباغ التى كانت الجميلات من أهل ذلك الإقليم قد طلين بها أجسادهن(٤١) ؛ ونساء « الفلاّتة » Fellatah فى أفريقيا الوسطى ينفقن عدة ساعات كل يوم فى تجميل أنفسهن : فهن يصبغن أصابع أيديهن وأرجلهن صبغة أرجوانية بأن يلففنها طوال الليل فى أوراق الحناء ، ويصبغن أسنانهن بالأزرق والأصفر والأرجوانى على هذا التوالى ؛ ويطلين شعرهن طلاء أزرق ، ويخططن جفونهن بالكحل(٤٢) وكل سيدة من قبيلة «بُنْجو» تحمل فى حقيبة أدوات التجميل ، ملقطاً تنزع به الرموش والحواجب ، ومشابك شعر على هيئة الرماح ، وخواتم وأجراساً ، وأزراراً ومشابك(٤٣) .

لكن السُّذَّج الأوّلين — مثل الإغريق أيام بركليز — ضاقوا صدراً لسرعة زوال هذه الأصباغ ، فابتكروا الوشم والوصم والثيابَ أدواتٍ للتزين أدوم بقاء ،

فني كثير من القبائل أسلم الرجال والنساء أنفسهم للإبرة الصابغة وتحملوا في غير تململ حتى وشم الشفاه ؛ فني جريلنده تشم الأمهات بناتهن في سن مبكرة ليمهدن لهن الزواج عاجلا(٤٤) ؛ لكن الوشم في أغلب الحالات لم يكن له ما أراده الناس من وضوح وتأثير ؛ لذلك طفق عدد من القبائل في كل قارة يَصِمُ الجسمَ بوصمات عميقة ليكونوا أجمل منظراً في أعين زملائهم ، أو أبشع هيئة في أعين أعدائهم ؛ فكما قال عنهم « ثيوفيل جوتييه » Théophil Gautier : « إنهم لما عزت عليهم الثياب ووسائل الزينة ، زينوا جلودهم »(٤٥) ، فكانوا يجرحون أجسامهم بحجر الصوّان أو بقواقع المحار ، ثم كثيراً ما يضعون في الجرح كرةً من الطين لتوسّع من الوصمة ؛ فأهالي « مضيق تورس » كانوا يشخنون في جسومهم وصمات ضخمة ، وقبائل « أبيوكوتا » Abeokuta كانوا يجعلون وصماتهم شبيهة بشكل الضب أو التمساح أو السلحفاة(٤٦) ، ويقول « جيورج » Georg : « لست تجد من أجزاء الجسم جزءاً لم يجمّلوه أو يزينوه أو يشوهوه أو يصبغوه أو يحرقوه أو يشموه أو يصلحوه أو يبسطوه أو يقبضوه ، مدفوعين إلى ذلك بالعجْب بأنفسهم والرغبة في التجمل(٤٧) فقبيلة « بوتوكودو » Butocudos استمدت اسمها هذا من خابور يغرزونه في الشفة السفلى وفي الأذنين حينما يكون الناشئ في سنته الثامنة ، ثم ما ينفكون يستبدلون به خابوراً أكبر حتى تبلغ الفتحة اتساعاً طول قطره أربع بوصات(٤٨) ؛ والنساء الهوتنتوت يعملن على إطالة الشفرتين الصغيرتين حتى تبلغا طولا عظيما ، بحيث يتكون منها ما يسمّى بـ « فوطة الهوتنتوت » التي تلقى عند رجالهم إعجاباً عظيما(٤٩) ، وكانت أقراط الآذان وأقراط الأنوف ضرورات لاغنى عنها ؛ حتى لقد ذهب سكان « جيپسلنده » Gippsland إلى أن من يموت بغير قرط في أنفه سيلاقي في الآخرة عذاباً أليماً(٥٠) ؛ وكأني بالسيدة العصرية تقول عن ذلك كله إنه وحشية فظيعة ، تقول هذا إذ هي تثقب أذنيها للأقراط ، وتصبغ شفتيها وخديها ، وتلقط شعرات حاجبيها ، وتقيم أهداب جفنيها ،

و « تُبَدِّرُ » وجهها وعنقها وذراعيها وتضغط قدميها ؛ إن بَحَّارنا الموشوم ليتحدث عن « الهمج » الذين رآهم فى رحلاته حديث الرجل الرفيع يعطف على هؤلاء الأدْنين ؛ والطالب من أهل أوربا ، يفزعه ما يحدثه البدائيون فى أجسامهم من تشويه ، لكنه مع ذلك يُزْهى بما عليه هو من وصمات يعدّها علائم الشرف .

والغالب أن تكون الثياب فى بدايتها ضرباً من الزينة ، فهى عامل يعوق الاتصال الجنسى أو يشجع عليه ، أكثر منها وقاية نافعة من البرد أو ستراً للعورة[٥١] ؛ فقد كانت العادة عند قبيلة « كمبرى » Cimbri أن يزحفوا على الثلج بأجسام عارية[٥٢] ، ولما أشفق « دارِونْ » على الفويچيين من عُرْيهم ، أعطى أحدهم قطعة من القماش الأحمر ليتقى بها البرد لكن الرجل مزقها أشرطة ، ووزعها على زملائه ، فاستعملوها للزينة ؛ فهم كما قال عنهم « كوك » إنهم منذ الأزل « قد رضوا لأنفسهم العُرى لكنهم ما زالوا يطمعون فى الجمال »[٥٣] ، وكذلك حدث أن مزّق نساء أورينوكو ما أعطاهن إياه الآباء الجزويت من ثياب ، ولبسنها أشرطة حول أعناقهن ، قائلات فى غير تردد « إنهن يستحين أن يلبسن الملابس »[٥٤] ويصف كاتب قديم أهل البرازيل الأصليين بأنهم عراة الأجسام عادة ، ثم يضيف إلى ذلك قوله : « وبعضهم الآن يلبس الثياب ، لكنهم لا يقدرونها كثيراً حتى إنهم ليرتدونها على سبيل البدْع أكثر مما يرتدونها التزاماً للاحتشام ، أو يابسونها لأنهم مأمورون بذلك . . . وإنك لتشهد ذلك فيمن يخرجون أحياناً من ديارهم ، لا يرتدون من الثياب ما يغطى أجسامهم أبعد من سُرَّة البطن ، أو هم يضيفون إلى ذلك طاقية على رءوسهم ، مخلّفين سائر الثياب فى دُورهم »[٥٥] ؛ فلما زادت الثياب على كونها أداة للزينة ، أصبحت علامة تدل على أن المرأة متزوجة ومخلصة لزوجها ، أو استُخْدمت لإبراز قوام المرأة وجمالها ؛ وفى معظم الحالات ، ترى النساء البدائيات يتطلبن من الثياب ماتتطلبه النساء فى العصور التى تَلَتْ ، وهو ألا تكون الغاية تغطية العُرْى ، بل أن تزيد من فتنة

أجسامهن أو توحى بها ؛ إن كل شىء فى تغيّر إلا المرأة والرجل .

وكلا الجنسين منذ البداية آثرا الزينة على الثياب ؛ فالتجارة البدائية قلما تعنى بالضرورات ، إنما هى تحصر نفسها عادة فى مواد الزينة واللعب(٥٦) ؛ والأحجار الكريمة هى من أقدم عناصر المدنيّة ؛ فلقد وُجدت أصداف القواقع والأسنان معقودة فى عقود للزينة ، وُجدت فى مقابر لبثت على وجه الدهر عشرين ألف عام »(٥٧) ثم من البدايات الساذجة ، سرعان ما تتطور أمثال هذه الحلىّ حتى تبلغ من ضخامة الحجم حدا بعيداً ، وتلعب فى الحياة دورا عظيما ؛ فنساء قبيلة « غالا » كن يلبس خواتم بلغ وزنها ستة أرطال للمرأة الواحدة ، وبعض نساء « الدّنكا » يحملن نصف قنطار من الزينة ؛ وحدث لجميلة من جميلات أفريقيا أن لبست خواتم نحاسية حميت فى حرارة الشمس بحيث اضطرت أن تستخدم خادما خاصاً يظللها أو يُروّح عليها ؛ وكانت ملكة « الوابونيا » Wabunias على نهر الكنغو تلبس حول عنقها إطارا نحاسيا يزن عشرين رطلا ؛ فكان لزاماً عليها أن ترقد حينا بعد حين لتستريح ؛ أما النساء الفقيرات اللائى لم يسعفهن الحظ إلا بمقدار خفيف من المعادن الكريمة ، فقد كن يحاكين فى دقة مشية أولئك اللائى يحملن من تلك الزينة البشعة حملا ثقيلا(٥٨) .

إذن فأول مصادر الفن قريب الشبه بزهو الحيوان الذكر بألوانه وريشه أيام التزاوج ؛ والدافع إليها هو الرغبة فى تجميل الجسم وتزيينه ؛ وكما أن حب الإنسان لنفسه وحبه لعشيره من الجنس الآخر ؛ إذا فاض عن القدر المطلوب ، صَبَّ فيضه من الحب على الطبيعة ، فكذلك الدوافع إلى التجميل ينتقل من العالم الخاص إلى الدنيا الخارجية ؛ فتحاول النفس أن تعبر عن نفسها فى أشياء موضوعية ؛ متخذة فى ذلك وسيلتى اللون والشكل ؛ ولذا فالفن يبدأ حقيقة حين يبدأ الناس فى تجميل الأشياء ؛ ولعل أول ما تعلق به فن التجميل هو الخزف ، فعجلة الخزّاف — مثل الكتابة ومثل الدولة هى وليدة العصور التاريخية ؛ لكن البدائيين

— أو على الأصح النساء البدائيات — حتى قبل هذه العجلة التى يستعملها الخزّاف ، استطعن أن يرتفعن بهذه الصناعة القديمة إلى مرحلة الفن ، وأخرجن من الطين والماء وأصابعهن الماهرة صوراً لها اتساق يبعث على الدهشة ؛ وإن أردت شاهدا فانظر إلى الخزف الذى صنعته قبيلة « بارونجا » Baronga فى أفريقيا الجنوبية(٥٩) أو الذى صنعته قبيله « بُويبْلُو » من الهنود(٦٠) Pueblo Indians .

والخزّاف حين يزخرف سطح الآنية التى صنعها بزخارف ملونة ، إنما هو بذلك يخلق فن التصوير ، فالتصوير فى أيدى البدائيين لم يكن بعد قد أصبح فنا مستقلا ، بل كان وجوده متوقفاً على فن الخزف وصناعة التماثيل ؛ والفطريون إنما يصنعون ألوانهم من الطين ، وأهل « أندامان » Andamanes يصنعون الألوان بخلط المغرة (تراب حديدى) بالزيوت أو الشحوم(٦١) ؛ واستخدموا مثل هذه الألوان فى زخرفة الأسلحة والآلات والآنية والمبانى ؛ وكثير من القبائل الصائدة فى أفريقيا وأوقيانوسيا ، كانت تصوّر على جدران كهوفها أو على الصخور المجاورة لها ، تصاوير ناصعة لصنوف الحيوان التى أرادت صيدها(٦٢) .

ويجوز كذلك أن يكون الخزف وصناعته أصل النحت كما كان أصل التصوير ؛ فتبيّن للخزّاف أنه لا يستطيع فقط أن يصنع الأوانى النافعة ، بل فى مقدوره كذلك أن يصور الأشخاص فى تماثيل يستفاد منها تمائم للسحر ، ثم بعدئذ أراد أن يصنع هذه الأشياء لتكون جمالا فى ذاتها ؛ لقد نحتَ الإسكيمو قرون الوعل وعاج فيلة البحر تماثيل صغيرة للحيوان والإنسان(٦٣) ؛ وكذلك أراد البدائى أن يميز كوخه بعلامة ، أو يميّز عمود الطوطم أو قبرا من القبور بتمثال صغير يدل على معبوده أو على ميّته ؛ فكان أول ما نحت من ذلك وجهٌ على عمود ، ثم نحت رأسا ، ثم نحت العمود كله ؛ ومن هذا التميز لقبور الآباء بتماثيل تصور الموتى ، أصبح النحت فنا(٦٤) ؛ وعلى هذا النحو أقام سكان جزيرة إيستر القدامى تماثيل هائلة على قبور موتاهم ، كل تمثال من حجر واحد ، ولقد وجدنا عشرات من هذه

التماثيل يبلغ كثير منها عشرين قدماً فى ارتفاعه ، وبعضها تراه الآن سطيح الأرض مهشما ، كان ارتفاعه لا يقل عن ستين قدماً .

لكن كيف بدأ فن العمارة ؟ إننا لا نكاد نستطيع إطلاق هذا الاسم الضخم على بناء الكوخ البدائى ، لأن العمارة ليست مجرد بناء ، لكنها بناء جميل ؛ وإنما بدأت العمارة فناً حين فكّر رجل أو فكّرت امرأة لأول مرة أن تقيم بناء للمظهر وللنفع معاً : وربما اتجه الإنسان بهذه الرغبة فى خلع الجمال والفخامة على البناء ، إلى المقابر قبل أن يتّجه بها إلى الدُّور ؛ وبينما تطور العمود التذكارى الذى أقيم عند المقبرة إلى فن التماثيل ، فقد تطور القبر نفسه إلى المعبد ، ذلك لأن الموتى عند البدائيين كانوا أهم وأقوى من الأحياء ، هذا فضلا عن أن الموتى مستقرون فى مكان واحد ، بينما الأحياء يتجولون هنا وهناك بحيث لا تنفعهم الدُّور الدائمة .

ولقد وجد الإنسان لذة فى الإيقاع منذ زمان بعيد ، وربما كان ذلك قبل أن يفكر فى نحت الأشياء أو بناء المقابر بزمن طويل ؛ وأخذ يُطَوِّرُ صياح الحيوان وتغريده ؛ وقفزه ونَقْرَه ، حتى جعل منه غناء ورقصا ؛ وربما أنشد — مثل الحيوان — قبل أن يتعلّم الكلام(٥٦) ورقص حين أنشد الغناء ؛ والواقع أنك لن تجد فنا يميز البدائيين ويعبر عن نفوسهم كما يميزهم الرقص ويعبّر ، ولقد طَوَّرَه من سذاجة أوّلية إلى تركيب وتعقيد أين منهما رقص المتحضرين ؛ ونَوَّعَهُ صوراً شتى تُعَدُّ بالمئات ؛ فالأعياد الكبرى عند القبائل ، كانت تحتفل أولا بالرقص فى صورتيه : الجمعى والفردى ؛ وكذلك كانت الحروب الكبرى تبدأ بخطوات وأناشيد عسكرية ؛ والمحافل الكبرى فى الدين كانت مزيجاً من غناء ومسرحية ورقص ؛ إن ما يبدو لنا ضرباً من اللعب ، قد كان على الأرجح أموراً جدية للإنسان الأول ؛ فهم حين كانوا يرقصون ، لم يريدوا بذلك أن يعبروا عن أنفسهم وكفى بل قصدوا إلى الإيحاء إلى الطبيعة وإلى الآلهة ، مثال ذلك استحثاث

الطبيعة على وفرة النسل كانوا يؤدونه أساساً بالتنويم الذى ينتج عن الرقص؛ ويرى « سپنسر » أن الرقص يرجع فى أصله إلى ترحيب ذى طقوس برئيس عاد من الحروب ظافراً ؛ أما « فرويد » فرأيه أن الرقص أصله التعبير الطبيعى عن الشهوة الحسية ، وفن الجماعة فى إثارة الرغبة الجنسية ؛ فلو كان لنا أن نقول — غير متجاوزين هذه الآراء من حيث ضيق النظر — بأن الرقص إنما نشأ من الطقوس المقدسة وألوان العربدة ، ثم جمعنا النظريات الثلاث التى أسلفنا ذكرها فى نظرية واحدة ؛ كان لنا بذلك فكرة عن أصل الرقص هى أدق ما يمكننا الوصول إليه اليوم .

ولنا أن نقول بأنه عن الرقص نشأ العزف الموسيقى على الآلات كما نشأت المسرحية ؛ فالعزف الموسيقى — فيما يبدو — قد نشأ عن رغبة الإنسان فى توقيع الرقص توقيعاً له فواصل تحدده ، وتصاحبه أصوات تقويه ؛ وعن رغبته كذلك فى زيادة التهيج اللازم للشعور الوطنى أو الجنسى بفعل صرخات أو نغمات موزونة ؛ وكانت آلات العزف محدودة المدى والأداء ، ولكنها من حيث الأنواع لا تكاد تقع تحت الحصر ؛ فقد بذل الإنسان كل ما وهبته الطبيعة من نبوغ فى صناعة الأبواق بأنواعها والطبول والشخاشيخ والمصفقات والنايات وغيرها من آلات الموسيقى ، صنعها من قرون الحيوان وجلودها وأصدافها وعاجها ، ومن النحاس والخيزران والخشب ؛ ثم زخرف الإنسان هذه الآلات بالألوان والنقوش الدقيقة ؛ ومن وتر القوس قديما نشأت عشرات الآلات ، من القيثارة البدائية إلى الكمان والبيانو الحديثين ؛ ونشأ بين القبائل منشدون محترفون كما نشأ بينهم الراقصون المحترفون ، وتطور السُّلَّم الموسيقى من غموض وخفوت حتى أصبح على ما هو عليه الآن(٦٦) .

ومن الموسيقى والغناء والرقص مجتمعة ، خلق لنا « الهمجى » المسرحية والأوپرا ، ذلك لأن الرقص البدائى كان فى كثير من الأحيان يختص بالمحاكاة ،

فقد كان يحاكى حركات الحيوان والإنسان ولا يجاوز هذه المرحلة ، ثم انتقل إلى أداء يحاكى به الأفعال والحوادث ؛ فمثلا بعض القبائل الاسترالية كانت تقوم برقصة جنسية حول فجوة فى الأرض يوشّون حوافيها بالشجيرات ليمثلوا بها فرج المرأة وبعد أن يحركوا أجسامهم حركات نشوانة غَزِلَة ، يطعنون برمامهم طعنات رمزية فى الفجوة ؛ وقبائل استراليا الشمالية الغربية ، كانت تمثل مسرحية الموت والبعث لا تختلف إلا فى درجة البساطة عن مسرحية اللغز فى القرون الوسطى والمسرحية العاطفية فى العصر الحديث ؛ فكنت ترى الراقصين يهبطون إلى الأرض فى حركة بطيئة ، ثم يغطون وجوههم بغصون يحملونها ، تمثيلا للموت ؛ حتى إذا ما أشار لهم الرئيس ، نهضوا نهوضا مباغتا وهم يرقصون ويغنون رقصا وغناء عنيفين يَدُلون بهما على فوزهم الذى أحرزوه ، ويعلنون بعث الروح(٦٧) وعلى هذا النحو أو ما يشبهه ، كانوا يقومون بمئات الأوضاع فى التمثيل الصامت ، ليصفوا بها أهم الأحداث فى تاريخ القبيلة ، أو أهم الأفعال فى حياة الفرد ؛ فلما اختفى التوقيع من هذا التمثيل ، تحول الرقص إلى مسرحية ، وبهذا وُلِدَتْ لنا صورةٌ من أعظم صور الفنون .

بهذه الوسائل خَلَقَ لنا البدائيون السابقون لعصر الحضارة صور الحضارة وأسسها ؛ فإذا ما نظرنا إلى الوراء نستعرض هذا الوصف الموجز للثقافة البدائية ، وجدنا هناك كل عنصر من عناصر المدنية إلا عنصرين : هما الكتابة والدولة ، فكل أوضاع الحياة الاقتصادية وُضعت لنا أصولُها فى هـــذه المرحلة : الصيد والسمّاكة ، الرعى والزراعة ، النقل والبناء ، الصناعة والتجارة وشئون المال ؛ وكذلك كل الأنظمة السياسية البسيطة نبتت جذورها فى هـــذه المرحلة : العشيرة والأسرة ، القرية والجماعة والقبيلة ؛ وكذلك ترى الحرية والنظام — هذان المحوران المتضادان اللذان تدور حولهما المدنيّة كلها — قد تلاءما وتوافقا لأول مرة فى هذه المرحلة ، فبدأ حينئذ القانون وبدأت العدالة ؛ وقامت أسس الأخلاق :

تدريب الأطفال وتنظيم الجنسين : وتلقين الشرف والحشمة وقواعد السلوك والولاء ؛ وكذلك وضعت أسس الدين ، واستخدمت آماله ومخاوفه فى تأييد الأخلاق وتدعيم المجتمع ؛ وتطور الكلام إلى لغات معقدة ، وظهرت الجراحة وظهر الطب ، وبدأت بوادر متواضعة للعلم والأدب والفن ؛ وفوق هذا كله كانت هذه المرحلة صورة لعهد تم فيه إبداع عجيب ، فنظام يُخلق من فوضى ، وطريق بعد طريق يُشَقُّ من حياة الحيوان لينتهى إلى الإنسان الحكيم ؛ فبغير هؤلاء « الهمج » وما أنفقوه من مائة ألف عام فى تجريب وتحسُّس ، لما كُتب للمدنيَّة النهوض ؛ فنحن مَدينون لهم بكل شىء تقريبا — كما يرث اليافع المحظوظ ، أو إن شئت فقل كذلك إنه اليافع المتحلِّل ، كما يرث هذا اليافع سبيله إلى الثقافة والأمن والدَّعة ، من أسلاف أمِّيِّين وَرَّثوه ما ورَّثوه بكدحهم الطويل .